***الأستاذة: بن سويكي**

***مادة: قضايا نقدية**

***المستوى: الثّانية أدب حديث ومعاصر**

المحاضرة رقم:06 / إشكاليّة المصطلح النّقدي:

*01/إشكاليّة المصطلح النّقدي:

إنّ المصطلح الموظّف في علم من العلوم له خصوصيّته في ذلك العلم وفي الثّقافة الّتي أنتج فيها، "لكن هناك بعدا عالميا يصعب إغفاله لا سيّما حين ينتقل ذلك المصطلح إلى ثقافة أخرى فيستدعيّ اتّخاذ موقف مع أو ضدّ، أو بين بين فثمّة معارف ومصطلحات إنسانيّة تستدعي التّبني والإفادة إلى جانب معارف ومصطلحات تستدعي الرّفض أو الانتقاء الشّديد".

وباعتبار الأدب من العلوم الإنسانيّة، فليس من السّهل أن يدخل المصطلح إلى عالم الأدب في بيئة ثقافيّة معيّنة ما لم يتّم التّعامل معه بالتّدرج وبنوع من الحذر الشّديد حتّى يصبح قادرا على المواءمة مع هذا الفكر وخصوصياته، ويمارس المصطلح دورا أساسيا وفاعلا في تكوين المعرفة، وفي الوقت نفسه، فإنّ حقل المعرفة الّذي يتشكّل فيه المصطلح، يوجّه مفهومه، ويحدّد دلالته، ذلك أنّ المفهوم الّذي ينطوي عليه شكل المصطلح، يتعدّد، تبعا لتعدّد حقول المعرفة من جهة، وتبعا للأثر التّاريخي الّذي يتطوّر في ضوئه ذلك الحقل من جهة أخرى، والمشكلة أنّ "المصطلح هو تعميم أو تجريد ذهني لظاهرة أو حالة أو إشكاليّة علميّة أو ثقافيّة.

وأولى مشكلات نقل المصطلح "ترجع إلى أنّ المصطلح ليس دالا يشير إلى مدلول حسيّ واقعيّ خارج العقل، ولكنّه رمز لغويّ سواء أكان يدّل على مفهوم بسيط أو مركّب يشير إلى صورة ذهنية داخل العقل وليست خارجه".

من هنا يكون المصطلح بحاجة إلى رصد فكريّ وثقافيّ يعمل على تشكّله وفهمه، لقد أثارت الثّورة اللّسانية والنّقدية الّتي شهدها هذا القرن "والّتي مثّلت السّتينيات أبرز منعطفاتها وبؤرتها المتفجّرة مشكلات كبيرة في مجال وضع المصطلح اللّساني والنّقدي ترجمته وتعريبه أمام الباحثين واللّسانيين والمترجمين والنّقاد العرب"، ممّا جعل الجميع يفاجأ بظهور العشرات من المصطلحات الجديدة الّتي لم تكن مألوفة أو معروفة من قبل بالنّسبة للمعجم اللّساني والنّقدي العربيّ، وقد شهدت الحياة الثّقافيّة والأكاديميّة والمعجميّة حركة عربيّة ناشطة للتّعامل مع هذا الانفجار المعجميّ والاصطلاحيّ الجديد سواء ضبط المفاهيم أو على مستوى إيجاد مقابلات أو موازيات مترجمة لهذه المفاهيم".

وبشأن هذه المشكلة حكم النّاقد المصريّ "سمير حجازي" على مصطلحات نقدنا المعاصر "بأنّ المصطلحات أو المفاهيم الشّائعة في كتابات نقدنا الجديد يغلب عليها الاضّطراب والغموض والفوضى، وخلّوها من الدّلالة الفكريّة واللّغوية والثّقافية، حيث تبدو للمتلقّي مفردات غريبة عن مفردات لغته العربيّة رغم تداولها في أوساطه الثّقافية"، وسانده في رأيه هذا ناقد آخر مؤكّدا، أنّ "النّاقد العربيّ الحديث نفسه اليوم –ومعه القارئ أيضا- دخل شبكة معقّدة من المصطلحات النّقدية الحديثة الّتي أطلقها الانفجار النّقدي الهائل في هذا القرن، والّتي تتطلّب الفحص والتّعيين وإعادة التّقويم تجنّبا لكلّ لبس أو غموض أو تداخل وصولا إلى رؤية منهجيّة ونقديّة حديثة وواضحة قادرة على استنطاق النصّ الأدبيّ وتأويله".

*02/النّاقد وتوظيف المصطلح:

قد يتصوّر البعض من النّقاد أنّهم أصبحوا ألعوبة في يد المصطلحات الّتي تجيء عن طريق العولمة والتّرجمة والتّطورات الحاصلة في جميع المجالات العلميّة والإنسانية، ولهذا فإنّنا نلاحظ أنّ الطراز السّائد الآن، "هو طراز النّاقد المغترب، لأنّه أصبح في مرحلة معيّنة مجرّد أداة فكريّة أو ذهنيّة، أو ألعوبة في يد المفاهيم النّقدية الحديثة الّتي أصبحت تسيطر على ذهنه وعلى نشاطه، وأصبحت تعزله عن ماضيه الفكريّ القديم أو الحديث وحين يشعر بينه وبين نفسه بالاغتراب أو لا يشعر به بصورة مباشرة أو محسوسة تظهر توتّرات ثقافية تقلّل من استقرار مواقفه الفكريّة وتكامله مع جماعته الفكرية بسبب فقده على نحو مشعور به أو غير مشعور به-أسس التّواصل مع قارئه العام أو الخاص".

وتباينت المواقف تّجاه المصطلح من المشرق إلى المغرب، وقد يظهر البؤس في النّقد الأدبي، أحيانا، وفي غيره ربّما "في الهويّة الفاصلة بين اللّغة النّقدية المشرقيّة واللّغة النّقدية المغاربيّة، اللتين تحتفظان بالكلمات العربيّة، دون أن تتقاسما مصطلحا مشتركا، أو أن تردا، أحيانا، إلى أسئلة ثقافيّة مشتركة"، ويمكن أن يعود هذا إلى المنطلقات اللّغوية الّتي يعتمدها كلّ مترجم، وقد ينتقل مشكل المصطلح إلى العلم نفسه، وعلى سبيل المثال، نأخذ مصطلح السّيميائية، حيث يرى "سامي عبابنة" أنّ الاختلاف في المصطلح قد نتج عن "اختلاف في المصدر الّذي أخذ منه، فإذا نقل عن الفرنسيّة ظهر مصطلح السّيميولوجيا، أمّا إذا نقل عن الأنجليزية فيشار إليه بالسّيميائية، هذا بالإضافة إلى ظهور ترجمات عدّة له مثل: "علم العلامات" و"علم الدّلالة" و"علم الأدلّة".

كما شبّ جدل أيضا حول مفهوم مصطلح البنية باعتباره تصوّرا ذهنيا مجرّدا وليس "مجموعة من العلاقات الحسيّة في هياكل مادية، يمكن أن يطولها الإدراك المباشر"، وهذا الاختلاف ليس وقفا فقط على السّيميائية، أو البنية، بل ينصبّ على مصطلحات أدبيّة كثيرة، ومصطلح البنية هذا يشبه السرّ في الخطاب النّقدي العربيّ المعاصر، لاسيّما وأنّ المصطلحات والمفاهيم الرّاهنة لم تتوحّد بعد لتصبح كسائر مفاهيم العلوم الإنسانيّة، فالمشاهدة العابرة لكثير من المصطلحات الشّائعة في الكتابات المعاصرة نراها غامضة مضطربة، "فالملاحظ مثلا أنّه لا يوجد اتّفاق حول ماهيّة "البنية" structure أو النسق system أو غيرهما من الألفاظ والمصطلحات الحديثة".

ويذهب "عبد العزيز حمّودة" مؤكّدا على مشكلة المصطلح ويضرب لنا مثالا بارزا، لا يكاد أحد درس الأدب أو النّقد وغفل عن ملاحظته حيث تبرز الحيرة في التّعامل مع المصطلح النّقدي الغربيpoetics والّتي "لم تكن أبدا حيرته وحده، ولكنّها حيرة جيل كامل أمام مصطلح نقدي مستورد تجسّد في نهاية المطاف في أكثر من عشر ترجمات-حتّى الآن لمصطلح واحد".

ومن النّقاد البارزين الّذين أشاروا إلى أهميّة توحيد المصطلح النّقدي "عبد الله محمّد الغذّامي" الّذي قال فيه أحدهم: -والكلام موجّه إلى كتابه "الخطيئة والتّكفير"، "يثير الكاتب –فيما نرى- مسألة ملحّة في السّاحة النّقدية العربيّة، ألا وهي مسألة (توحيد المصطلح)، بخاصّة أنّ بعض النّقاد –والغذّامي من بينهم- قد يطيب له أحيانا أن يستعمل في سياقه النّقدي ترجمتين مختلفتين لمصطلح واحد، مثال على ذلك استعمال ناقدنا لكلمتي (التّشريحية) و(التّفكيك) ترجمة للمصطلح النّقدي Deconstruction كما أنّ كلمات أو مصطلحات من قبيل (مدار الإجبار التّجاوزي) و(مدار الإجبار الركني) في حاجة إلى مزيد من الدّقة والتّحديد والوضوح".

وغموض المصطلح والتباسه ومشقّة البحث عنه قد أتعب النّاقد العربي الحديث بشكل كبير وجعله يشعر بالاغتراب والاستقرار، لذلك قال أحد النّقاد: "والواقع أنّ استخدام المفاهيم الحديثة كان يلزمه في البداية ما نسمّيه بمرحلة "الإعداد" إعداد فكرنا وبيئتنا الثّقافية والأدبيّة لمواجهة هذا الحديث، لكن لم يلتفت نقّادنا أو مثقّفونا لهذه المسألة، إذ لم يحاول فرد أو جماعة أن تحدّثنا عن خواص هذا الحديث من منظور

ثقافتنا، ثمّ تحدّثنا عن دلالات مفاهيمه في بنية لغتنا وفكرنا العربيّ، وهذا كان من الطّبيعي أن يصاحب ظهور هذه المفاهيم بعض مظاهر الاضطراب...".

تعدّ مشكلة عدم توحيد المصطلحات والمفاهيم تجعل النظريّة النّقدية تفتقر إلى لغة علميّة، الأمر الّذي يؤكّد بوضوح تعثّر النّقد المعاصر في سيره نحو استخدام مصطلحات علميّة دقيقة، "فمازالت مصطلحاته تخضع في كثير من الحالات للتأثّر بالنّزاعات الذاتيّة في حين أنّ لغة العلم كميّة موضوعيّة"، وقد يزيد الأمر تعقيدا حين يظهر الصّراع بين هاتين الفكرتين المتناقضتين الموجودتين معا، بين "ما أعنيه أنا" و"ما تعنيه الكلمة"، ويتّخذ أشكالا متنوّعة في النّظريات".

ورغم إشارة العديد من النّقاد إلى الأهميّة الكبرى الّتي عاناها الخطاب النّقدي العربيّ المعاصر من مشكل التّرجمة والمصطلح، إلاّ أنّنا نجد من النّقاد من ينظر لهذه المشكلة بعين ناقدة أكثر فأكثر: ف"الأزمة ليست كما قد يتصوّر البعض أزمة مصطلح وترجمته ونقله إلى العربيّة، بل أزمة الثّقافة – الثّقافات الّتي أفرزت ذلك المصطلح، أزمة اختلاف حضاريّ وثقافيّ بالدّرجة الأولى".

و"نقل مفهوم من ثقافة إلى ثقافة أخرى ليس بينهما تشابه في الفكر وفي اللّغة يفرغ هذا المفهوم من دلالته في الإطار الّذي نشأ في سياقه، أو في الإطار الّذي تمّ النّقل إليه، من هنا تأتي أهمّيته وضرورة تحديد مدلوله في كتابات نقدنا الجديد كي يتفاعل ويتكيّف مع بيئتنا الثّقافية تكيّفا يقتضيه التّغيير في بعض مجالاتنا اللّغوية والفكريّة وبذلك يصبح المفهوم المنقول –بمعنى ما-جزءا من ثقافة النّاقد وثقافة المجتمع وبعض مقوّماته".

ويعدّ تحديد مساحة المصطلح الّذي يعمل فيها، ليس أمرا هيّنا، فما بالنا إذا كان المصطلح واحد يعمل في عدّة مساحات مختلفة، إنّه الأصعب، ويشير إلى هذا مصطلح ما بعد الحداثة (على سبيل المثال)، "إذ إنّ حركة ما بعد الحداثة اليوم نشطة فاعلة في كافة الفضاءات الثقافية الغربية: السّياسية والاقتصاديّة والتّعليمية والاجتماعية والفلسفيّة والأخلاقيّة والنّفسية والمعرفيّة والأنتروبولوجيّة وغيرها من مشارب الحياة العليا والدّنيا على السّواء".

قد يكون التّنوع الفكريّ والثّقافي سببا في إحداث هذا الغموض على مستوى المفهوم، "وممّا يزيد الغموض هو أنّ "ما بعد الحداثة" مظلّة عامة تتشظّى داخل نفسها لتكون ذاتها، فتتعدّد وتنقسم إلى ما بعد حداثات مختلفة، مجموعها العام يشكّل ما بعد الحداثة العامة، ويكون هنا الانقسام والتّشظي سمتها القارة".

لقد تعامل النّقد الأدبيّ مع مفهوم ما بعد الحداثة "بارتباك زاد التباسه التباسا أشدّ، وإذا كان المفهوم في الغرب يعاني من القلق وفقدان التّحديد، فإنّ النّاقد العربيّ، ومثله المفكّر ذو همّ به، ولم يرق إلى حدود واضحة، وموقف نقديّ".

ويقدّم لنا "أحمد محراد ويّس" أسباب مشاكل المصطلح في الخطاب النّقدي العربيّ المعاصر من وجهة نظره، إذ يقول: "...فثمّة مصطلح واحد للدّلالة على أشياء عدّة، وثمّة أكثر من مصطلح للدّلالة على شيء واحد، ومردّ ذلك ومرجعه إلى تداخل فروع العلم والمعرفة، ثمّ إلى تعدّد واضعي المصطلح في الوطن العربيّ واختلاف ثقافتهم، ثمّ انقطاع ما بينهم بحيث لا يمكن أن يفيد السّابق منهم اللاّحق".

أمّا "عبد الملك مرتاض" فيرى أنّ المشكلة تختلف عن سابقه، فيحدّدها بقوله: "إنّ المشكلة في اعتقادي من هناك، إنّها تنطلق من ضرورة الاتّفاق على المصطلح النّقدي، بعد أن عانينا المصطلح العلمي، ها نحن نعاني المصطلح النّقدي، إنّ الكثير من الألفاظ أو من المصطلحات المستعملة لا يفهمها القارئ العربيّ العاديّ، ولا يفهمها أيضا حتّى الّذين يتمتّعون بثقافة جامعية تقليديّة إذا صحّ مثل هذا التّعبير، فالنّقد العربيّ إذن، في وقتنا الحالي، ليس بخير".

ولكن هناك من يرى أنّ المشكلة "لا تتمثّل في غموض المصطلح أو مراوغته في سياقه الأصلي الأجنبيّ ولكنّها تتمثّل في استخدامنا العربيّ له بحريّة وفي تداخل غريب يرجع إلى أنّنا في حقيقة الأمر عاجزون عن تحديد انتماءاتنا بالدّرجة الأولى". ومردّ ذلك كون الدّراسات العربيّة ظلّت أسيرة المناهج النّقدية الغربيّة غير القادرة على العمل وعلى اكتشاف مصطلحات جديدة بإمكانها مواكبة ما يحصل عند الغرب من تطوّر، وعلينا أن ننتبه إلى أنّ الوقت الّذي كانت فيه معظم الاتّجاهات أسيرة الأخذ من الغرب وحده "لم تعط العطاء المنتظر، لأنّها تاهت في دوّامة من المصطلحات الغامضة، وظلّت التّعبير الصّادق عن الذّات، وظنّت أنّ التّجربة الّتي عاشها غيرنا ممّن قطعوا شوطا في التّحضر –يمكن أن تغنينا عن كثير من الجهد والمحاولة في إعادة صياغة المفاهيم النّقدية وفقا للظّروف الخاصّة الّتي أحاطت بالمجتمع العربيّ، وهي في كلّ ذلك تهمل –عن وعي أو بدون وعي-منبعها من التّيارات النّقدية العربيّة القديمة، الّتي بها يمكن أن تخصب حركة النّقد في جانبه النّظري وجانبه التّطبيقي".

03/الحلول المقترحة من قبل الدّارسين:

تقدّم عدد من الدّارسين ببعض الحلول لإشكاليّة المصطلح النّقدي، نذكر منها:

-1-ليس ثمّة من حرج في أن يكون "عند النّقاد مصطلحان يتناوبان فيما بينهما مفهوما ما، وهو ما يتأكّد إذا ما كان هذا المفهوم يحمل في طيّاته إشكاليّة ما، من مثل مفهوم الانزياح، ولكن الحرج كلّ الحرج هو أن تكثر المصطلحات كثرة يغدو المفهوم معها غائما ومشوّشا".

-2-أمّا الحلّ الّذي ذهب إليه النّاقد العربيّ الحديث منذ زمن، يعلن "عبد الله إبراهيم" عن عدم صلاحيّته فيقول: "إنّ شحن المصطلح القديم بدلالة جديدة مغايرة لدلالته الأصل أو نقل مصطلح ذي دلالة محدّدة، ضمن ثقافة ما إلى ثقافة أخرى، أفضى في الثّقافة العربيّة الحديثة، إلى اضطّراب كبير،..." ، لقد أصبح النّقد العربيّ يجتاز في صورته الحاليّة محنة اغتراب قاسيّة برزت في مظاهرها في أغلب كتاباته في العقود الأخيرة والنّقاد والمثقّفون منقسمون فيما بينهم إزّاء هذه الظّاهرة إلى فريقين؛ "فريق يرى في عدم تحديد مفاهيم النّقد الغربيّ في الكتابات العربيّة مظهرا من مظاهر التخبّط والاضطراب، نظرا لأنّ عدم تحديدها يشتّت القارئ ويجعله يشعر بوجود حواجز لغويّة وفكريّة تفصله عن عالم هذه الكتابات، فغياب اللّغة المشتركة يقضي على الشّعور بالألفة اللّغوية والفكريّة أو الثّقافية، ويؤدّي إلى قطع الأوشاج الّتي تصل بين النّص والقارئ، وغموض الفكر يجعل المفردات اللّغوية غامضة، وشيوع المفردات الغامضة لا تحقّق الهدف المنشود من وراء الكتابة أو من وراء النصّ. أمّا الفريق الثّاني فيرى في هذه الكتابات النّقدية صورة خلاّقة لمواكبة حركات التّطور الفكري والثّقافي العالمي، وإنّها (الكتابات) بهذه المواكبة تصنّف في صفوف العلوم الإنسانيّة، لأنّها تطبّق مناهج ومفاهيم هذه العلوم".

-3-للخروج من هذه الإشكاليّة ينبغي للدّارسين العرب أن يعملوا في اتّجاهين اثنين: أ/توضيح المصطلحات والتّعريف بها، ب/توحيد المصطلحات" .

-4-ويرى النّاقد "عمر عيلان": "أنّ البحث العلميّ في المصطلح النّقدي العربيّ، بحاجة لعمليّة مسح شاملة للمصطلحات وجدولتها ودراسة منطلقاتها وأبعادها المعرفيّة الحقيقيّة وتخليص الخطاب النّقدي العربيّ من النّحت المفرد، والتّعريب الشّخصي، والتّرجمة الذّاتية للمصطلح" ، بل إنّ هذه العمليّة على درجة كبيرة من الأهميّة: "وهو المجهود الّذي يتطلّب تظافر مجموعة من المعطيات المتبنيّة على قاعدة أساسيّة، هي الوعي بضرورة تعمير الخطاب النّقدي العربيّ من منطلق المثاقفة الإيجابيّة الّتي تنبذ الفردانيّة وتؤمن بالمشروع الحداثيّ المشترك والمتكامل".

***مصادر ومراجع المحاضرة:**

-يوسف وغليسي: إشكاليّة المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد.

-سمير سعيد حجازي: *النّقد الأدبي المعاصر قضاياه واتّجاهاته.*

-عبد العزيز حمّودة:المرايا المقعّرة

-سمير سعيد: مشكلات الحداثة في النقد العربي.

-فاضل ثامر: اللّغة الثّانية

التّطبيق:

-يحدّد "يوسف وغليسي" وظائف المصطلح في خمس نقاط:

أوّلا: الوظيفة اللّسانية: فالفعل الاصطلاحيّ يكشف عن طاقة اللّغة العربيّة وعبقريّتها، ومدى اتّساع جذورها المعجميّة، وتعدّد طرائقها الاصطلاحيّة، ومن ثمّ قدرتها على أن تكون لغة العلم.

ثانيا: الوظيفة المعرفيّة: بما أنّ المصطلح هو لغة العلم والمعرفة، فلا وجود لعلم دون مصطلحيّة(مجموعة مصطلحات)، وقد التفت علماؤنا القدماء إلى أنّ التّأسيس المعرفيّ للعلوم يتطلّب تحديد لغة علميّة متّفق عليها بين المشتغلين بالعلوم، وقد خلّف هؤلاء مكانز مصطلحيّة تمثّل مفاتيح العلوم والفنون، وكلّ علم له مفتاحه، أي مصطلحه، والأمثلة على ذلك: "كشّاف اصطلاحات الفنون" للتهانوي، و"مفتاح العلوم" للسّكاكي، و"التّعريفات" للجرجاني.

ثالثا:الوظيفة المصطلحيّة: وكما أنّ المصطلح مفتاح العلم، فهو أبجديّة للتّواصل بين أهل الاختصاص في أيّ حقل معرفيّ.

رابعا: الوظيفة الاقتصاديّة: يقوم الفعل الاصطلاحيّ بوظيفة اقتصاديّة بالغة الأهميّة؛ يمكّننا من تخزين كمّ معرفيّ هائل، في وحدات مصطلحيّة محدّدة، والتّعبير بالحدود اللّغوية القليلة عن المفاهيم المعرفيّة الكثرة.

خامسا: الوظيفة الحضاريّة: تعدّ اللّغة الاصطلاحيّة لغة عالميّة، فهي ملتقى الثّقافات الإنسانيّة، وهي الجسر الحضاريّ الّذي يربط بين لغات العالم بعضها ببعض، وتتجلّى هذه الوظيفة خصوصا في آليّة الاقتراض؛ الّتي لا غنى لأيّة لغة عنها، حيث تتحوّل بعض الكلمات-بفعل الاقتراض-إلى كلمات دوليّة ويتحوّل المصطلح إلى وسيلة لغويّة وثقافيّة للتّقارب الحضاريّ بين الأمم.